

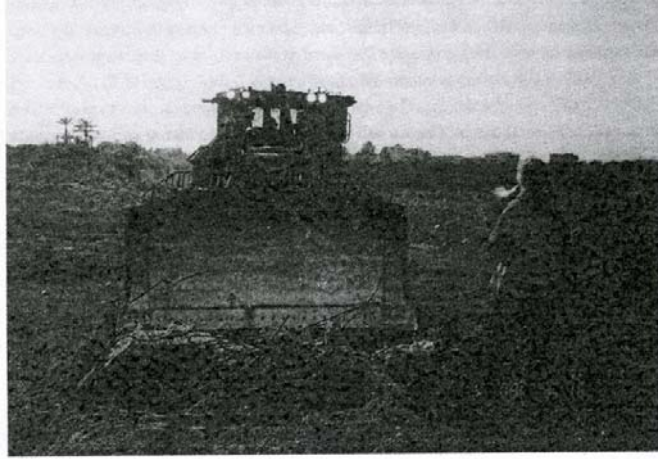
رسائل راشيل كوري إلى ذويها*

في 16 آذار/مارس 2003، تعرضت داعية السلام راشيل كوري، البالغة من العمر ثلاثة وعشرين عاماً، والمتحدرة من أولمبيا في ولاية واشنطن الأميركية، للهرس تحت جنازير جرافة الجيش الإسرائيلي في رفح، في جنوب قطاع غزة، حيث كانت تقيم منذ سبعة أسابيع بصفة متطوعة مع حركة التضامن الدولية (ح ت د). كانت ترتدي سترة برتقالية اللون من النوع الذي يرتديه متطوعو الحركة خلال قيامهم بعمل "الدروع البشرية"؛ وكانت كوري تحاول، بمشاركة نشطاء آخرين من الحركة، وقف عمليات هدم المنازل الفلسطينية.

وقد لحظ الجيش الإسرائيلي في بيانه الأولي، المؤرخ 17 آذار/مارس، أن الحادث وقع بينما كانت قواته "تقتلع الشجيرات على طول الحدود بين إسرائيل ومصر"، وأنه "لما كانت نوافذ الجرافة الحصينة ضد الرصاص صغيرة للغاية، فإن الرؤية محدودة جداً، وبالتالي لم ير سائق الجرافة المرأة". لكن في حين أظهر البيان الإسرائيلي الأولي أن "جرافة للجيش الإسرائيلي دهست عرضاً أحد المتظاهرين فيما يبدو"، فإن التحقيق "الكامل" الذي قام به رئيس هيئة أركان الجيش الإسرائيلي وأنجزه خلال الأسبوع الثاني من نيسان/أبريل 2003، خلص إلى أن كوري لم تدهسها "عربة هندسة" قط، وإنما ضربها شيء صلب، وهو في الأغلب عمود من الأسمنت تحرك أو انزلق عندما أزيحت كومة التراب التي كانت كوري تقف وراءها. وبرا التقرير ساحة القوات الإسرائيلية من أية مسؤولية.

لكن استناداً إلى تقارير شهود عيان قدمها متطوعو ح ت د، فإن ما جاء في وصف الجيش لتسلسل الأحداث لا يشبه قطعاً ما رأوه. واستناداً إلى كلمات جو سميث (Joe Smith)، وهو من نشطاء ح ت د كان حاضراً يومها، "فإن راشيل كانت راكعة على بعد 20 متراً أمام الجرافة على أرض مستوية، ولم يكن ثمة من سبيل لعدم رؤيتها. ونحن نتخذ دوماً مواقع مرئية بوضوح. وكانت كوري تقوم بذلك خلال النهار كله، لكن السائق لم يتوقف هذه المرة. وما إن وقعت تحت الجرافة حتى توقف السائق عندما كانت تحت القسم الأوسط من أليته ورجع إلى الوراء". وتؤكد الصور التي أخذت للحادث روايات ح ت د.

* المصدر: Journal of Palestine Studies, vol. XXXII, no. 4, Summer 2003, pp. 68-73.



راشيل كوري، إحدى الناشطات في حركة التضامن الدولية، تقف أمام الجرافة التي هرسنها بعد دقائق معدودة.

في 11 نيسان/أبريل، وبينما كان الجيش الإسرائيلي يعلن نتائج تحقيقاته، أصيب طوم هرنдал (Tom Hurndall)، وهو شاب بريطاني من نشطاء ح ت د، في الحادية والعشرين من عمره، برصاصة في رأسه أطلقها جندي إسرائيلي في مكان آخر من رفع. وكان هرنдал يرتدي أيضاً سترة برتقالية فاتحة اللون كالتي كانت كوري ترتديها عندما قتلت. وبعد شهرين على إصابة هرنдал كان لا يزال في حالة غيبوبة. (للمزيد عن ح ت د وحملة إسرائيل على "دعاة السلام" الدوليين، بما في ذلك تفصيلات إطلاق الجيش الإسرائيلي رصاص الرشاشات الثقيلة على اثنين من نشطاء الحركة في 6 نيسان/أبريل، أنظر تقرير شارمين سايتز).

لم يلق مصرع كوري إلا اهتماماً محدوداً في وسائل الإعلام الأميركية، التي كانت منشغلة انشغلاً شبه تام بالحرب على العراق، لكن كان هناك مع ذلك بعض ردات الفعل. ففي 25 آذار/مارس، قام أحد عشر نائباً في مجلس النواب الأميركي - وجميعهم من الديمقراطيين في ولاية واشنطن وكاليفورنيا - بقيادة بريان بيرد (Brian Baird)، من ولاية واشنطن، بتقديم قرار غير ملزم (H. Con. Res. 111) يعرب عن التعاطف مع أسرة كوري، ويدعو الولايات المتحدة إلى القيام بتحقيق كامل، ويحث حكومتها الولايات المتحدة وإسرائيل على تحديد ظروف الوفاة والتأكد من عدم تكرار حوادث مشابهة. وعقب اختتام الجيش الإسرائيلي للتحقيقات في نيسان/أبريل، صرحت وزارة الخارجية الأميركية أنها لا تزال تطالب بتحقيق كامل. وقد قام الجيش الإسرائيلي بمراجعة نتائج التحقيق وتأكيداتها، وأغلق الملف رسمياً في نهاية حزيران/يونيو.

فيما يلي مقتطفات من رسائل راشيل كوري الإلكترونية إلى ذويها الذين أتاحوا الاطلاع عليها بواسطة ح ت د، ثم نُشرت في صحيفة "الغارديان" بتاريخ 18 آذار/مارس 2003.

7 شباط/فبراير 2003

سلام لأصدقائي وعائلتي، وغيرهم،

لقد أمضيت في فلسطين أسبوعين وساعة واحدة حتى الآن، ولا أزال أفترق إلى الكلمات الكافية لوصف ما أراه. من أصعب الأشياء عليّ أن أفكر في ما يجري هنا عندما أجلس لأكتب إليكم في الولايات المتحدة. شيء عن المدخل التخيلي إلى الترف. لا أدري ما إذا كان كثيرون من الأطفال هنا عاشوا من دون أن يروا آثار الثقوب التي خلفتها قنابل الدبابات في حيطانهم، وأبراج الجيش المحتل التي تراقبهم باستمرار من الآفاق القريبة. أظن، وإن كنت غير متأكدة، أن أصغر هؤلاء الأطفال يفهم أن الحياة ليست هكذا في كل مكان آخر. قتل صبي في الثامنة من عمره بنيران دبابة إسرائيلية قبل يومين من وصولي، وكثيرون منهم يهيمسون اسمه في أذني - علي - أو يشيرون إلى صورته الملصقة على الحيطان... ثمة صبايا في الثامنة من أعمارهن هنا أدري بمجريات تركيبة القوى العالمية مما كنت أنا عليه قبل بضعة أعوام.

مع ذلك فليس في استطاع أي قدر من القراءة، وحضور المحاضرات، والأفلام الوثائقية، والروايات الشفهية، أن يهيئني لواقع الحال هنا. فأنتم لن تستطيعوا أن تتخيلوه إن لم تشاهدوه - وحتى عند ذلك فإنكم تدركون جيداً أن اطلاعكم عليه لا يشمل الواقع كله: فماذا عن الصعوبات التي يواجهها الجيش الإسرائيلي إذا أطلق النار على مواطن أميركي غير مسلح، وعن كوني أملك المال لأشتري الماء عندما يقوم الجيش بتدمير الآبار، وكوني أملك خيار المغادرة، طبعاً. لم يقتل أحد من أفراد عائلتي في أثناء سياقة سيارته بقاذفة صواريخ من برج في ناصية شارع رئيسي في مسقط رأسي. لديّ مسكن. ولي الحق في أن أذهب لرؤية المحيط. وعندما أذهب إلى المدرسة أو العمل أستطيع أن أكون متأكدة، إلى حد ما، من أنه لن يعترضني في منتصف الطريق، بين مدّ باي (Mud Bay) ووسط مدينة أوليمبيا، حاجز تفتيش عليه جندي مدجج بالسلاح مخول صلاحية اتخاذ القرار بالسماح لي بأن أمضي في سبيلي أو منعي من العودة إلى منزلي عندما أفرغ من عملي. وعلى هامش هذا اللغو كله، أنا في رفح: وهي مدينة يسكنها 140.000 نسمة، نحو 60% منهم من اللاجئين - ومنهم لاجئون للمرة الثانية أو الثالثة. واليوم، وبينما كنت أمشي على أنقاض منازل كانت قائمة، صاح بي الجنود المصريون من الجانب الآخر من الحدود، "إنهبي! إنهبي!" لأن ثمة دبابة مقبلة، ثم أوماؤا: "ما اسمك؟" ثمة شيء مقلق في هذا الفضول الودود. وقد ذكرني كم نحن كلنا أولاد إلى درجة ما، أولاد يحركنا حب الاستطلاع عن أولاد آخرين. أولاد مصريون يصيحون بامرأة غريبة تائهة على درب الدبابات. أولاد فلسطينيون يقتلون بنيران الدبابات عندما يطلون من وراء الحيطان ليروا ما يجري. أولاد دوليون يقفون أمام الدبابات حاملين الرايات. أولاد إسرائيليون بلا أسماء في الدبابات - يصيحون

أحياناً ويومئون أحياناً أيضاً؛ كثيرون منهم مكرهون على أن يكونوا هنا، وكثيرون منهم عدوانيون، يطلقون النار على المنازل بينما نتوه نحن مبتعدين. أواجه هنا بعض الصعوبات في الوصول إلى أنباء العالم الخارجي، لكنني أسمع أن تصعيد الحرب على العراق أمر محتوم. ثمة قلق كبير هنا في شأن إعادة احتلال غزة. الاحتلال يعود إلى غزة كل يوم بدرجات متفاوتة، لكنني أعتقد أن الخوف هو من أن تدخل الدبابات كل الطرق وتبقى فيها بدلاً من دخول بعض الطرق ثم الانسحاب بعد بضع ساعات أو أيام للمراقبة وإطلاق النار من أطراف البلدات. إذا كان الناس لم يفكروا حتى الآن في عواقب هذه الحرب على شعوب المنطقة بأكملها، فإنني أمل بأن تبدأوا أنتم بذلك.

20 شباط/فبراير 2003

ماما،

الآن حفر الجيش الإسرائيلي فعلياً الطريق إلى غزة، وأغلق المعبرين الرئيسيين. وهذا يعني أن الفلسطينيين الذين يريدون أن يذهبوا ليسجلوا أسماءهم في الجامعة للفصل الثاني لن يتمكنوا من ذلك. والناس لا يستطيعون أن يذهبوا إلى أعمالهم، والذين هم في الجانب الآخر من المعابر لن يستطيعوا أن يعودوا إلى منازلهم، والمتطوعون الدوليون الذين لديهم اجتماع غداً في الضفة الغربية لن يتمكنوا من حضوره. ربما استطعنا أن نعبر إذا ما استخدمنا امتيازنا الخاص كأشخاص بيض أجانب استخداماً جاداً، لكن هذا قد يعني أيضاً المجازفة بالتعرض للاعتقال والإبعاد، حتى وإن لم يكن أحد منا فعل أي شيء غير قانوني...

أنا على أهبة الاستعداد في رفح في الوقت الحاضر، وليس لدي أية خطط للتوجه شمالاً. لا أزال أشعر بشيء من الأمان، وأعتقد أن أقرب المخاطر احتمالاً عليّ، في حال حدوث توغل واسع النطاق، هو الاعتقال... إعلمي أن ثمة عدداً من الفلسطينيين اللطفاء جداً يهتم بأمري. أصبت برشح خفيف، وحصلت على شراب الليموناضة اللذيذ لعلاج الرشح. كما أن المرأة التي تحتفظ بمفتاح القبو الذي ما زلنا ننام فيه لا تفتأ تسألني عنك. إنها لا تعرف شيئاً من اللغة الإنكليزية، لكنها تسأل تكراراً عن أمي - وتريد أن تتأكد من أنني أتصل بك.

27 شباط/فبراير 2003

أحبك. وأنا مشتاقة حقاً إليك. أرى كوابيس مخيفة عن الدبابات والجرافات المحيطة بمنزلنا وأنا وإياك في المنزل. أحياناً يعمل الأدرينالين عمل المخدر مدة أسابيع، ثم في المساء، أو في الليل، تعاودني الكوابيس مجدداً - شيء بسيط من واقع

الوضع. أنا خائفة جداً على الناس هنا. أمس رأيت أباً يخرج من منزله مصطحباً ولديه الصغيرين جداً، الممسكين بيديه، إلى مرأى الدبابات وبرج القناصة والجرافات وسيارات الجيب لأنه ظن أن منزله سيفجّر. وقد مكثت أنا وجيني (Jenny) في المنزل مع عدة نساء وطفلين صغيرين. كانت غلطتنا في الترجمة سبباً في جعله يعتقد أن منزله هو الذي سيفجّر. والواقع أن الجيش الإسرائيلي كان يقوم بتفجير لغم في الأرض المجاورة - لغم يبدو أن المقاومة الفلسطينية كانت زرعته.

وهذا يجري في المنطقة التي تم فيها يوم الأحد تطويق نحو 150 رجلاً واعتقالهم خارج المستوطنة مع إطلاق النار فوق رؤوسهم ومن حولهم، بينما كانت الدبابات والجرافات تدمر خمس وعشرين خيمة بلاستيكية - هي مورد رزق 300 شخص. كان اللغم أمام الخيم البلاستيكية، تماماً عند النقطة التي تدخل منها الدبابات التي قد تعود ثانية. لقد راعني مجرد التفكير في أن هذا الرجل شعر بأنه يتعرض لخطر أقل إذا ما خرج إلى مرأى من الدبابات مع طفليه مما قد يتعرض له إذا ما ظل في منزله. لقد خفت كثيراً من أن تطلق النار عليهم كلهم، وحاولت أن أقف بينهم وبين الدبابة. هذا يحدث كل يوم، لكن مشهد هذا الأب الذي خرج ماشياً مع ولديه الصغيرين وأمارات الكأبة على وجهه، استحوذ على انتباهي أكثر في هذه اللحظة بالذات، ربما لأنني شعرت بأن سوء ترجمتي هو ما جعله يغادر.

فكرت كثيراً في ما قلت بالهاتف عن العنف الفلسطيني الذي لا يساعد على حل الوضع. كان 60.000 عامل فلسطيني من رفح يعملون في إسرائيل منذ عامين. الآن 600 منهم فقط يستطيعون الذهاب إلى أعمالهم في إسرائيل. ومن هؤلاء الـ 600 انتقل كثيرون لأن الحواجز الثلاثة بين رفح وعسقلان (أقرب مدينة في إسرائيل) تجعل الآن من الرحلة التي كانت تستغرق أربعين دقيقة رحلة تدوم اثنتي عشرة ساعة، أو ربما رحلة مستحيلة. علاوة على ذلك، فإن ما كانت تعتبره رفح في سنة 1999 مصادر نمو اقتصادي قد بات كله مدمراً تماماً - مطار غزة (دمرت مدارجه، وأغلق تماماً)، وحدود التجارة مع مصر (يعترضها الآن برج عملاق للقناصة في وسط المعبر)، والوصول إلى البحر (ممنوع تماماً في السنتين الماضيتين جرّاء حاجز للجيش ومستوطنة غوش قطيف). ويبلغ عدد المنازل التي دمرت في رفح منذ بداية هذه الانتفاضة نحو 600 منزل، وهي في معظمها لأشخاص لا علاقة لهم بالمقاومة وإنما اتفق أنهم يعيشون في منازل حدودية. أعتقد أن رفح باتت بصورة رسمية أفقر موضع في العالم. كانت هنا طبقة وسطى منذ زمن قريب. وقد حصلنا على تقارير تفيد أن شحنات الزهور المصدرة من غزة إلى أوروبا كانت في الماضي تؤخر مدة أسبوعين على معبر إيرز لأغراض التفتيش الأمني. في وسعك أن تتصور قيمة هذه الأزهار المقطوفة منذ أسبوعين في الأسواق الأوروبية، وقد كسدت هذه السوق أيضاً. ثم تأتي الجرافات

وتجرف بساتين الخضروات والفاكهة. ماذا بقي للناس؟ أخبريني إذا كان في وسعك أن تفكري في شيء. أنا لا أستطيع...
سألتنى عن المقاومة السلمية.

عندما انفجر ذلك اللغم أمس، كسر كل النوافذ في منزل العائلة. كنت أتناول الشاي وألعب مع طفلين صغيرين. أنا أمر بوقت عصيب الآن. أشعر بالغيثان الشديد حتى المعدة لكوني موضع تدليل كل الوقت، وبعذوبة بالغة، من جانب أشخاص يواجهون الهلاك. أعرف أن هذا كله يبدو في الولايات المتحدة قصة خرافية. بصراحة، إن مجرد طيبة الأشخاص هنا، مشفوعة بالبينات القاطعة على التدمير المقصود لحياتهم، تجعل ذلك يبدو أحياناً كثيرة غير واقعي في نظري. فأنا لا أكاد أصدق أن شيئاً كهذا يمكن أن يحدث في العالم من دون صرخة أكثر دويماً...

في أية حال، أنا أثرثر. أريد أن أكتب إلى والدتي لأخبرها أنني أشهد هذه المجزرة الجماعية المزمنة، الغادرة، وأنا خائفة حقاً وأشكك في إيماني الأساسي بطيبة الطبيعة البشرية. لا بد لهذا من أن يتوقف. أعتقد أن من الأجدر بنا جميعاً أن نطرح كل شيء وننذر كل حياتنا لنوقف هذا. لم أعد أعتقد أن القيام بهذا الشيء أمر متطرف. ما زلت أريد حقاً أن أرقص على أنغام بات بيناتار (Pat Benatar)، وأن أتخذ أصدقاء وأرسم صوراً مضحكة لزملائي في العمل. لكنني أريد أيضاً أن يتوقف هذا. الرعب وعدم التصديق هما ما أشعر به. خيبة الأمل. أنا خائبة الأمل من أن هذا هو الواقع الأساسي لعالمنا، وأننا نشارك فيه فعلاً. ليس هذا أبداً ما رغبت فيه يوم جئت إلى هذا العالم. ليس هذا أبداً ما أراده الناس هنا عندما جاؤوا إلى هذا العالم. ليس هذا هو العالم الذي أردت أنت ووالدي أن تجلباني إليه عندما قررتما إنجابي. ليس هذا ما كنت أعنيه عندما نظرت إلى بحيرة كابيتال وقلت: "هذا هو العالم الواسع وأنا آتية إليه." لم أكن أعني أنني آتية إلى عالم يمكنني أن أعيش فيه حياة مريحة، وربما أن أعيش من دون جهد إطلاقاً في غيبوبة تامة عن مشاركتي في مجزرة جماعية. ثمّة مزيد من الانفجارات الضخمة في البعيد هناك.

عندما أعود من فلسطين، فالأرجح أنني سأرى كوابيس وأشعر دائماً بالذنب لأنني ما عدت هناك، لكنني أستطيع أن أوجه هذا نحو مزيد من العمل. المجيء إلى هنا هو واحد من أحسن الأمور التي قمت بها على الإطلاق. لذا فعندما أبدو مجنوناً، أو عندما يكف الجيش الإسرائيلي عن ميله العنصري إلى عدم إصابة الأشخاص البيض، أرجو أن يعزى السبب مباشرة إلى أنني في لجة مجزرة جماعية أشارك أنا أيضاً بطريقة غير مباشرة في مساندتها، وتحمل التبعة الكبرى فيها حكومة بلدي.

28 شباط/فبراير 2003

شكراً، أماء، على ردك على رسالتي الإلكترونية. حقاً إن استلام رسالة منك ومن الأشخاص الآخرين الذين يهتمون بي يساعدي كثيراً.

بعد أن كتبت إليك انقطعت الاتصالات بيني وبين الجماعة المجانسة عشر ساعات تقريباً أمضيتها مع عائلة على الخط الأمامي في حي السلام، فقدموا لي العشاء، وسهرة على التلفاز. الغرفتان الأماميتان من منزلها غير صالحتين للاستعمال لأن الرصاص اخترق حيطانهما، ولذا فإن العائلة كلها - ثلاثة أطفال ووالديهم - تنام في غرفة نوم الوالدين. أنا أنام على الأرض إلى جانب البنت الصغرى واسمها إيمان، وكلنا نتشارك في الغطاء. ساعدت الابن قليلاً في فرض اللغة الإنكليزية، ثم شاهدنا كلنا "بت سماتاري" (Pet Sematary)، وهو فيلم رعب. أعتقد أنهم كلهم استغربوا كثيراً كم وجدت من المشقة في مشاهدته. الجمعة هو يوم العطلة، وعندما استفتقت كانوا يشاهدون "غمي بيرز" (Gummy Bears) المدبلج بالعربية. تناولت الفطور معهم وجلست هناك برهة مستمتعة بالقعود في هذه الكومة من الأغصان مع هذه العائلة أشاهد ما بدا لي أنه فيلم الصور المتحركة صباح السبت. ثم سرت مسافة قصيرة إلى حي البرازيل، حيث يعيش نضال ومنصور والجدة ورأفت وبقية العائلة الكبيرة التي تبنتني من أعماق قلبها. (بالمناسبة، منذ أيام ألفت عليّ الجدة بالإشارات واللغة العربية محاضرة انطوت على كثير من النفخ والإشارة إلى ملاءتها السوداء. فطلبتُ من نضال أن يبلغها أن والدتي ستسر كثيراً إذا عرفت أن ههنا من يعظني ويفهمني أن التدخين يجعل رئتي سوداوين.) التقيت نسيبة لهم جاءت زائرة من مخيم النصيرات، ولعبت مع طفلها الصغير.

لغة نضال الإنكليزية تتحسن يوماً بعد يوم. إنه الشاب الذي يدعوني "أختي". بدأ يعلم جدته كيف تقول لي "مرحى، كيف الحال؟" بالإنكليزية. في وسعك دائماً أن تسمعي الدبابات والجرافات تمر من هنا، لكن هؤلاء الأشخاص كلهم مرحون بعضهم مع بعض ومعى. عندما أكون مع أصدقاء فلسطينيين، أميل إلى أن أكون أقل ذعراً مما أكون عليه عندما أحاول أن أقوم بدور مراقب حقوق الإنسان، أو الموثق، أو المقاوم المؤمن بالعمل المباشر. إنهم نماذج جيدة لكيفية الصمود في المدى الطويل. أعرف أن الوضع يستهدفهم - وربما نال منهم في نهاية المطاف - على جميع الصعد، لكنني مدهوشة مع ذلك من قدرتهم على الدفاع عن هذا القدر الكبير من إنسانيتهم - الضحك والسخاء ووقت العائلة - في وجه الرعب غير المعقول القائم في حياتهم، وفي وجه الموت الحاضر أبداً. شعرت بتحسن أكبر هذا الصباح. أمضيت وقتاً طويلاً في الكتابة عن خيبة الأمل الناجمة عن اكتشافني، بصورة مباشرة إلى حد ما، درجة الشر التي ما زلنا قادرين عليها. ولا بد من أن أذكر، على الأقل، أنني أكتشف أيضاً درجة من القوة والقدرة الأساسية عند البشري يظلوا بشراً في أحلك الظروف - وهو أمر لم أشهده من

قبل. أعتقد أن الكلمة هي "الكرامة". أتمنى أن تتمكني من مقابلة هؤلاء الأشخاص.
ربما تفعلين ذلك يوماً، فيما أمل. ■

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
<http://www.palestine-studies.org/ar/mdf>